# فن التوقيعات الأدبية في الثقافة العربية.

حساني مامة
طالبة دكتوراه
جامعة جيلالي اليابس

تمهيد:

تعدّ التوقيعات الأدبيّة جنسا نثريّا له سمات خاصّة به، وقد ظهرت في الأدب العربي في صدر الإسلام عند الخلفاء الرّاشدين، غير أنّه لم يكتب لها الحظ من الذّيوع والانتشار إلاّفي العصر العباسي، حينما ازدهرت الكتابة الفنيّة، وتعدّدت أغراضها، وحلّت محلّ الخطابة في كثير من شؤون الدّولة وقضاياها، ومن هذا المنطلق أصبح الكاتب البليغ مطلبا من مطالب الدّولة تحرص عليه، وتبحث عنه، لتسند إليه عمل تحرير المكتبات، وتحبير الرّسائل في دواوينها الّتي تعدّدت نتيجة لاستبحارها واتساع نطاقها.

وقبل الخوض في الحديث عن نشأتها ثمّ تطوّرها لا بأس أن نعرّج قليلا في المعاجم اللّغوية لنبحث عن أصلها اللّغوي:

أ. مقاربة لمفهوم التوقيع: 1-لغة:

تدور معظم المعاني الّتي أوردتها المعاجم القديمة في مادّة (وَقَع) حول ترك الأثر في الشّيء أو إصابته، وإبراز تأثيره فيه وسقوطه عليه، يقال: "وقع على الشّيء، ومنه يَقَعُ وُقُوعًا وقوعا: سقط، ووقع الشّيء من يدي كذلك، وأوقعه غيره ووقعت من كذا وعن كذا وقعا، ووقع المطر بالأرض، ولا يقال سقط، هذا القول أهل اللّغة، ويقال: سمعت وقع المطر وهو شدّة ضربه الأرض إذا وَبَلَ، ويقال: سمعت لحوافر الدّواب وقعا ووقوعا"1، فهذه الأشياء مما يترك أثرا فحوافر الدّواب، تترك أثرا في الأرض عند مشيها، وكذلك المطر يترك أثرا في الأرض بعد وقوعفكأنّه سمي توقيع لتأثير في الكتاب أو لأنّه سبب لوقوع الأمر وإنفاذه.

وعلى هذا فإنّنا نرى أنّ معاني التّوقيع اللّغوية قريبة من المعاني الاصطلاحيّة كما سنرى.

2-اصطلاحا: ورد في تعريف "ابن فارس"للتّوقيع: "أنّه ما يلحق بالكتاب بعد الفراغ منه"2، وهو تعريف قريب جدّا من المعنى الاصطلاحي له، فهو هنا أن يلحق الكاتب نفسه بعض العبارات بعد أن يفرغ من كتابة النّص الأصلي والصّلة واضحة بين المعاني اللّغوية

السابقة وهذا المعنى كون التوقيع يترك أثرا في الشيء يختلف عن الأول لكنّه ليس نفس المعنى الدّقيق للتوقيع كما عرّف.

اكتسبت التوقيعات في الإسلام معنى اصطلاحيا ارتبط كثيرا بالمعنى اللّغوي الّذي ذكرناه سابقا، فأصبحت تستعمل لما يوقعه الكاتب على القضايا أو الطّلبات المرفوعة إلى الخليفة أو السلطان أو الأمير، "فقد جرت العادة أن يستعمل في كلّ كتاب يكتبه الملك، أو من له أمر ونهي في أسفل الكتاب المرفوع إليه أو على ظهره أو في عرضه بإيجاب ما يُسأل عنه أو منعه"3، كأنّ يكتب الرّئيس في أسفل الكتب الواردة إليه، بما فيه وجود الفحص أو قضاء المآرب.

1) رؤية المحدثين للتوقيعات:

أما تعريفات المحدثين للتوقيعات فهي تدور حول المفهوم الشّائع للتوقيعات من حيث كونها، ما يكتبه صاحب الأمر في الدولة من ردّ على ما يرفع إليه من رقاع بين سطورها أو في حواشيها أو على ظهرها بما يراه مناسبا في أمرها –مذكور سابقا–.

وبالتالي فالتوقيعات هي " كلّ ما الخلفاء يثبتونه من الجمل القصار في أعقاب الرّسائل المرفوعة الّتي تردّ إليهم من الولاة وسائر النّاس ليجيزوا ما في هذه الرّسائل"4، وقد عرّفه أيضا محمد حجاب قائلا " هو التعليق على الرّسائل الواردة إلى الدّيوان بما يناسبها"5، غير أنّنا لا نجد مفهوم، دقيق ومحدّد وجامع لمختلف المفاهيم إلاّ فيما كتبه كلا من 'محمد الدروبي' و'صلاح جرار'، بعد استعراضهم لمختلف المفاهيم على أنّه "يطلق على ما يكتبه الرؤساء على اختلاف مراتبهم تعليقا على الرّسائل المرفوعة إليهم، كأن تكتب عبارة إنشاء أو اقتباسا في حاشية الرّسالة المرفوعة إلى الرّئيس في أمر ما، فتكون هذه العبارة جوابا يعمل بمقتضاه"6، ومع أنّ التعريفات السابقة حدّدت مفهوم دقيق للتوقيع، والّذي يدخل ضمن المفهوم الشّائع له، إلاّ أنّها بتخصيصها صاحب الرقعة بأنّه –من الخلفاء أو الرّؤساء– على اختلاف مراتبهم، تخرج هنا طائفة من التوقيعات، والّتي تعود للكتاب واللّغويين والشّعراء وحتى النّساء، وهي توقيعات تنطبق عليها جميع الخصائص الفنيّة للتوقيعات "كونها جوابا على رسالة مرفوعة مسبقا"7، يغلب عليها طابع الاختصار الشّديد وهي تتناول مواضيع مختلفة ومتنوعة تضم الأغراض الشّعريّة كالهجاء والمدح، والأغراض النّثرية كرسائل العشق وغيرها.

2) مصادر التوقيعات:

تشير المصادر إلى أنّ الموقعين كانوا من أكثر النّاس معرفة وإطلاعا، ومن هنا يمكن أن نتوقع تعدّد وكثرة مصادر التوقيعات بما يتناسب وثقافة هؤلاء سواء أكانوا من الأمراء أم الكتاب أو الخليفة نفسه.

❖القرآن الكريم:

توقيعات كباقي أجناس اللّغة الأدبيّة نجد فيها أثر كبير للقرآن الكريم، فالقرآن الكريم يحتّل المرتبة الأولى من حيث الأهميّة والعدد بين مصادر التوقيعات، وهذا يتناسب مع طبيعة هذا الفن، الّذي يقوم على النّصيحة والحكمة، وهذا في ذاته يلزم الاحتجاج بالقرآن كتاب الله تعالى الّذي لا حكم بعده، إضافة إلى الهيبة والوقار اللّذان تضفيهما الآيات القرآنية، فتزيده قوة وتأثيرا.

❖ الحديث النبوي الشّريف:

الحديث النبوي الشريف مكانة كبيرة في نفوس المسلمين، كونه المصدر الثاني بعد القرآن الكريم، الّذي لا ينطلق عن الهوى، "لكن في الحقيقة لم يكثر الموقعون من إيراد الأحاديث في توقيعاتهم لذا فإن الحديث النبوي الشريف لم يشكّل مصدرا مهّما من مصادر التوقيعات الّتي وصلت إلينا من حيث الكم بالرغم من أنّ زمن التوقيعات وازدهارها تزامن من بداية تدوين الحديث في العصرين: الأموي والعباسي"8، لذلك فهذه المسألة بحاجة إلى التفسير والبحث في أسبابها.

❖الشعر العربي:

يضيف الشّعر العربي الّذي يرد في التوقيعات إلى صنفين، الأول: هو الشّعر الّذي يمثل به الموقعون، وهو الّذي نعتبره من مصادر التوقيعات، وأّما الثاني: فهو ما ينشئه الموقع من شعر في توقيعه.

الصنف الأّول هو من أهّم مصادر التوقيع، ويأتي في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم من حيث العدد، ولعّل ذلك يعود إلى "أنّ الشّعر سهل الحفظ سريع الورود إلى الخاطر، إضافة إلى تأثيره على النفس، وحسن وقوعه عليها لما يختزنه من حكمة ومن مواعظ يحسن التمثّل بها"9.

❖ الأمثال:

تشكّل الأمثال أحد مصادر التوقيعات في المواقف المشابهة التي يرى الموقع فيها أنّ المثل مناسبا لها، "فاستخدام الأمثال بما فيها من اختصار وتكثيف للمعنى يجعل التوقيع أكثر تأثيرا وأوجز في العبارة، وقربه من الصفات المثالية للتوقيع التي تقوم على الإيجاز

والتكثيف"10، ومن أمثلة ذلك توقيع الخليفة 'علي بن أبي طالب' -كرم الله وجهه- إلى 'طلحة بن عبيد الله'، إذ وردفي جمرة التوقيعات أنّه قد وقع إلى 'طلحة بن عبيد الله': "في بيته يؤتي الحكم"، وهذا من الأمثال المشهورة.

ثانيا: موضوعات التوقيعات الأدبية.

نظرا لأنّ هذا الجنس الأدبي مختص بأولي الأمر والنهي في الدّولة، وكانت الرّقاع تعرض على رأس الدولة أو الوالي ومن يوقع بلسمه، فإنّه من الطّبيعي أن تكون قد شملت الكثير من نواحي الحياة السياسية والإدارية التي تتعلق بالدّولة، كتعين الولاة وعزلهم وإدارة شؤون الجيوش والمعارك والفتوحات المنطقية في أرجاء الدولة الإسلامية وكذا القضايا القضائية التي يلجأ فيها إلى صاحب الأمر عندما يشوأحد أفراد الرّعيّة بالظلم، فلا يجد هذا المتظلّم طريقة إلاّ رفع قضيّته في رقعة إلى الخليفة حتى يرفع عنه الظلم.

إضافة إلى هذا، هناك الجانب الاقتصادي وهو أكثر الجوانب إيجابية خاصة إذا علمنا أنه كان يعنى بأمور العلماء الّذين يعكسون الوجه الحضاري المشرق للأمة، كالأمر بدفع الأموال لهم، إغناء لهم وإبعاد العوز عنهم للتفرغ للعلم، كما نجد أن التوقيعات قد شملت الموضوعات الاجتماعية الخاصة كتلك الّتي بين الآباء والأبناء، وبين الأصدقاء والإخوان وغيرها...

ثالثا: تطور فن التوقيعات الأدبية وازدهاره في الأعصر العباسية.

تكاد تجمع المراجع والبحوث الّتي تناولت التوقيعات على أنّ هذا الفن الأدبي لم تعرفه العرب في جاهليتها، إنّما نما وانتشر بعد بداية الإسلام، أو بالأحرى بعد تشكّل الدولة الإسلامية في عهد الخلفاء الّراشدين، والدّليل على ما رواه صاحب 'العقد الفريد'، من توقيعات للخلفاء الراشدين والخلفاء الأموين"11 الّذين أثرت عنهم بعض التوقيعات التي تتناول بعض شؤون الحكم، وهي تعطينا إشارة إلى نمو هذا الجنس الأدبي بتناغم منطقي - إن صح التعبير- مع نشوء الدولة الإسلامية، وتكون المؤسسات والمراسلات بينها وبين الدّول الأخرى، أو داخل الدولةنفسها، ولعلّهذا قد يفسّر لنا جزئيّا عن عدم وجود توقيعات في الجاهليّة.

1. التوقيعات في عصر صدر الإسلام:

مّر بنا أن التوقيعات عرفت في الأدب العربي أو ما عرفت في عهد 'أبي بكر الصّديق' (رضي الله عنه) والسّبب في ذلك شيوع الكتابة بعد أن أقبل المسلمون على تعلّمها، وأصبح الّذين يجيدونها يمثلون شريحة كبيرة، يضاف إلى ذلك استخدام الكتابة في تعبير الرّسائل، وتبليغ أوامر الخليفة وتوجيهاته إلى الولاة والقواد في مختلف أنحاء الدولة الإسلامية، فكانت التوقيعات: "تعليق الخلفاء والوزراء والأمراء على ما يرفع إليهم من الرسائل والقصص، أما من أبرز خصائصها الإيجاز في اللّفظ، والبلاغة في المعنى"12، فهي صور لذلك العصر، كونها حاجة بديهية تتعلق خاصة بأمور إدارة الدولة.

ويعدّ الخليفة الرّاشد –أبو بكر الصّديق– أوّل من استعمل التوقيعات في تاريخ الأدب العربي والإسلامي، غير أنّ هذه التوقيعات الّتي أثرت عنه، وصلت إلينا قليلة، لا نستطيع أن نبني عليها حكما أدبيا.

2.التوقيعات في العصر الأموي:

تعدّ التوقيعات في العصر الأموي امتدادا طبيعيا لها في عصر صدر الإسلام، بعد أن عرفت واستعملت، وغدت في العصر الّذي نتحدّث عنه فنّا أدبيّا، وعليه يمكن القول أنّ"هذا الفنّ قد ترسّخ، واتّضحت ميزاته الفنيّة بشكل واضح يميّزه عن غيره من الأجناس الأدبيّة الأخرى في هذا العصر، وأصبح متداولا بين أفراد الطّبقة الحاكمة"13، أي أنه وصل إلى مرحلة الاكتمال الفنّي.

إذ لم تعدّ مقتصرة –التوقيعات– على الخلفاء كما كانت في عهد الرّاشدين بل أخذ يتعاطاها الأمراء والولاة والقادة والكتاب على السواء، كزياد بن أدبية: والحجاج بن يوسف الثّقفي14 وغيرهم...

3.ازدهار فن التوقيعات في العصر العباسي:

وفي العصر العباسي زاد الاهتمام بالتوقيعات بشكل أوسع من خلال قيام مؤسسة ترعى شؤونه وتعتني بشؤون الموقعين، وحظيت التوقيعات في هذا العصر بقسط وافر من العناية، فقد تأسس في هذا العصر ما يعرف بديوان التوقيع، وأسند العمل فيه إلى بلغاء الأدباء والكتّاب ممّن استطارت شهرتهم في الآفاق، وعرفوا ببلاغة القول، وشدّة العارضة، وحسن التأني للأمور، والمعرفة بمقاصد الأحكام وتوجيه القضايا، يقول 'ابن خلدون' في ذلك:"العلم أنّ صاحب هذه الخصلة لابدّ أن يتخيّر من أرفع طبقات النّاس، وأهل المروءة والحشمة منهم، وزيادة العلم وعارضة اللّغة، فإنّه معرض للنّظر في أصول

العلم لما يعرض في مجالس الملوك، ومقاصد أحكامهم، مع ما تدعوه إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب، والتّخلّف بالفضائل مع ما يضطر إليه في التّرسيل، وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها"15، كان للتوقيعات البليغة الموجزة رواج عند ناشئة الكتاب وطلاب الأدب، فأقبلوا عليها ينقلونها ويتبادلونها ويحفظونها، وينسجون على منوالها، فكان "جعفر بن يحي البرمكي يوقع القصص بين يدي الرّشيد، ويرمي بالقصّة إلى صاحبها، فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها، للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها! حتى قيل: (إنّها كانت تباع كلّ قصّة منها بدينار)"16 ، لما فيها من إيجاز، وبلاغة، وإقناع من وضوح الحجّة وسلامتها، ومن قوّة المنطق وبراعته.

والحديث عن تطوّر التوقيعات وازدهارها في هذا العصر –العباسي– يتطلّب الوقوف عند قضيّة اختلف فيها العديد من الباحثين والدّارسين، ألا وهي أصالة التوقيعات وعلاقتها بالتوقيعات الفارسيّة الّتي سبقتها –زمنيا– فمنهم من رأى أنّ التوقيعات فن عربي خالص، نشأ مع توسّع الدولة الإسلامية، ولا علاقة لها بما عرف عن الفرس من توقيعات الخلفاء الرّاشدين وخلفاء بني أميّة تجعلنا مع القائلين بعربيّتها الأصيلة وإنّها انبعثت من الصّدور العربية لأنّها من ضرورات الملك واستبحار العمران فضلا عن طابعها الموجز17، فطبيعة التوقيعات الفنيّة تعتمد على الاختصار والإيجاز، خاصة في زمن الخلفاء الرّاشدين – زمن نشأة هذا الفن– وهذا الزّمن سبق الاتصال الّذي بين الفرس والعرب بكثير.

ترجع نشأة التوقيعات الأدبيّة إلى البيئة العربية، هذا وإن وجدت في بيئات أخرى، عند أمم غير عربيّة، لما في أسلوبها من إيجاز يناسب ما عرف عن العرب، والحاجة الطّبيعية لها عند كلّ الأمم كما في الرّسائل، وعليه يمكن القول باختصار "إنّ التوقيعات كالرّسائل نفسها، ينشأ نشأة طبيعيّة عامة عند الأمم، إذ لم تنقل أمة عن أمّة أخرى استعمال الرّسائل بمختلف أشكالها وسيلة من وسائل الاتصال"18، ومع ما ينطبق مع التفسير الطّبيعي المنطقي لنشوء التوقيعات الأدبيّة مع اتّساع الدولة الإسلامية وحاجتها للمراسلات الدّاخليّة والخارجيّة وكذا إدارة شؤون الدولة.

ذهب فريق آخر إلى أنّ هذه التوقيعات العربية نشأت بفعل التأثر بالحضارة الفارسيّة الّتي سبقت العرب إلى هذا النوع من الفن.

غير أنّ الناسب لهذا الفن العربي –الّذي نشأ واكتمل قبل هذا العصر (العباسي) بكثير، وفي نفس الوقت هو وفق لخصائصه الفنيّة الأسلوب العربي– إلى الثقافة الفارسية بحجّة السّبق الزّمني، أمر أقل ما يمكن القول عنه أنّ فيه مبالغة.

وبناءا على ما سبق، فإنّنا نرى أنّ نشأة التوقيعات هي من أصل عربي محظ، فنحن نوافق أنصار هذا الرّأي، ثم إنّ تأثّر التوقيعات كفن قائم بذاتبالتوقيعات الفارسيّة في هذا العصر (العباسي)هو محتمل، مثلها مثل الفنون الأخرى، الّتي تأثّرت بالثّقافة الفارسيّة، نتيجة لما شهده هذا العصر من حركة نشيطة في مجال الترجمة، إلاّ أنّه يبقى مجرّد تأثير وليس تقليد أو محاكاة.

## الهوامش

1-ابن منظور، لسان العرب، تح.عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، مصر، مج/6، ج/54، باب: الواو، مادّة: وَقَع ص 4894.

2-ابن فارس، مقاييس اللّغة، تح.عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د.ط، 1399هـ/1979م، ج/6، مادّة: وقع، ص 133.

3-ابن السيّد البطليوسي، أبو محمد محمد بن عبد الله، الاقتضاب في شرح أدب الكاتب، تح: مصطفى السقاء، الهيئة العربية للنّشر، القاهرة، مصر، ط.2، 1981، ص 243.

4-عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط.1، 1965، ج/1، ص 254.

5-محمد نبيه حجاب، بلاغة الكتاب في العصر العباسي، المطبعة الفنية، القاهرة، مصر، ط.1، 1965، ص 59.

6-جرار صلاح ومحمد الدروبي، التوقيعات الفارسية المعربة، منشورات جامعة آل البيت، الأردن، ط.1، 2002، ص 14.

7-عبد سالم العرجان، التقديم والتأخير في التوقيعات (دراسة نحوية)، رسالة مقدم لنيل شهادة ماجستير، جامعة مؤتة، الكرك، الأردن، 2006، ص12.

8-المرجع نفسه، ص 19.

9-المرجع نفسه، ص 20.

10-المرجع نفسه، ص 21.

11-ينظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، تح: أحمد أمين وآخرين، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1982، ج/3، صص 205،206.

12-مصطفى البشير قط، مفهوم النثر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط.1، 2009، ص 127.

13-عبد سالم العرجان، التقديم والتّأخير في التوقيعات (دراسة نحويّة)، ص 13.

14-ينظر: صلاح جرار ومحمد الدروبي، جمهرة توقيعات العرب، ج/1، (ورد خمسة عشر توقيعا منسوبا لعهد الخلفاء الرّاشدين بينما هناك خمسة وسبعون توقيعا منسوبا للعصر الأموي)

15-ابن خلدون، المقدمة، تح: علي عبد الواحد وافي، دار النهضة، القاهرة، مصر، ط.2، 1981، ص 681.

16-المرجع نفسه، ص 681.

18-محمدالمقداد، تاريخ التّرسّل النّثري عند العرب في صدر الإسلام، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ص 399.

17-محمد نبيه حجاب، بلاغة الكتاب في العصر العباسي، ص 97.